

المتخيل المحض: تأمل بالفكر/ تأمل بالشعر

The pure imaginary: a contemplation of thought /contemplation of poetry

¹ حسناء بروش

Hasna broche¹

جامعة محمد خيضر بسكرة.

University Mohamed khider biskra, Algeria

بريد الباحث: berouche.hasna@univ_oeb.dz

تاريخ النشر: 2022-12-30

تاريخ القبول: 2022-11-11

تاريخ الإرسال: 2022-01-30

ملخص البحث

تشغل موضوعة المتخيل حيزا معرفيا كبيرا، خاصة بالنسبة للإنسان البدائي، الذي يقتات على الصور الذهنية المجردة والمتخيلة ليشكل منها عوالمه العقلية والواقعية في آن واحد. على اعتبار أن الخيال هو الذي يؤسس الواقع في منظوره، كما أن الواقع هو ذلك المتحقق عن طريق الخيال، بكامل إسقاطاته وتمثلائه ووسائله المعنوية وغير المعنوية. إضافة إلى ذلك فإن الإنسان البدائي لم يصل بعد إلى مرحلة المرأة أو الوعي بالذات، لكي يتميز واقعيًا عن الوسط الذي يعيش فيه، سواء أكان هذا الوسط وسطا طبيعيا أو اجتماعيا أو أسطوريا. من هنا كانت الأسطورة هي الأقرب إلى نفسه لتفسير الوجود وفهمه والتعبير عنه، والأدنى إلى شعوره وخياله ومشاعره، ومن هنا أيضا كان الخيال البدائي بالغ الفعالية والمنفعة والتأثير، فأصبحت بذلك كل الموجودات اللامرئية أو اللامحسوسة التي يؤمن بوجودها، موجودات واقعية بالفعل، تفرض وجودها الواقعي/ المتخيل بالقوة.

الكلمات المفتاحية: الخيال؛ الرجل البدائي؛ الصور الذهنية؛ الأسطورة؛ الواقع.

Abstract :

The topic of subjectivity in one's imagination occupies a considerable slot of knowledge, especially for primitive humans, who lived and subsisted on the abstract and imagined mental images to form their imagined and realistic worlds simultaneously. On the same line of

¹ حسناء بروش: hasnabr21@yahoo.com

thought, the imagination is considered as the responsible for the establishment of reality in its perspective, just as reality is achieved through imagination, with all its projections, representations, and tangible and intangible aspects. In addition to that, primitive humans have not yet reached the stage of self-awareness in order to distinguish between what is real and imagined from the environment in which they live whether it is a natural, social or mythical environment. On this basis, the imagination was the closest to explain, understand and express existence at that time. Furthermore, the primitive imagination has played a highly effective, useful and influential role; thus, becoming all the tangible or intangible things that s/he believes in their existence, truly real things that impose their real existence /or Imagined by force.

Keywords: imagination; primitive humans; mental images;myth; reality.



يحتكم المتخيل إلى طبيعة حلمية تحويلية، يسعى من خلالها إلى تثبيت أفعال الخيال ودمجها دمجًا واقعيًا تمثليًا مركبًا، قوامه التطويع والخرق واللامعقولية.

وهو في كل هذا، يقيم تأملاته المتعالية، بناءً على ثنائيات مختلفة، ينتجها الخيال ويغذيها الفكر أو الشعور كالاستحضار والاستدكار، والتفاعل والتبادل...

وسنحاول من خلال هذا المهاد النظري التأملّي، البحث في متخيلات الفكر الأسطوري، والكشف عن الأطر البنائية والتصورية التي ساهمت في توسيع وتشكيل أفق هذه المتخيلات، وهل ثمة مسوغات أسطورية لفكرة أن روح الإنسان في خياله؟ وهل ثمة إشراقات خفية تمكننا من تجاوز مرايا خيال الإنسان البدائي وتقويض مقولته الشهيرة: "احْذَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذُوا خَيْالَكَ (أي حياتك)؟

وقبل ذلك أيضًا سنحاول إمطة اللثام عن مفاهيم الخيال والمتخيل والتخييل، وتبيان العلاقة بين الخيال والمتخيل (الحامل والمحمول) على اعتبار أن المتخيل معطى مادي يدل على الخيال ويقوم شاهدًا عليه. وذلك من خلال توصيف وتحليل المقولات النظرية التي تتبع مسار كل مصطلح على حدة.

تكتسب الخيلات أو التأملات التخيلية العميقة، التي تستند في اشتغالها على تمثيلات حسية أو ذهنية، أكثر من وجود أو حيز مدرك للظهور يسمح لها بترسيخ حضورها أولا وبمضاعفة هذا الحضور ثانيا، عن طريق الوعي المتخيل الخلاق.

ويعد المتخيل بذلك عنصرا ذاتيا وفعالا، يقاس بمدى التدفق العالي والمتعالي للمجازات والصور الخبيثة، التي تستدعي بفعل مؤشرات إيحائية خاصة، تعمل غالبا على دفع هذه التدفقات إلى مستويات الوعي الشعوري وخلخلة ثباتها، بغية إقامة هذا العمق المتخيل.

إن ما يجعل هذه التأملات أو التمثيلات الخيلية منتظمة ومتفردة، هو الاحتكام إلى الوعي المتخيل الذي يمتلك حق تشكيلها أو إعادة تشكيلها، وفق ما تقتضيه الضرورات الشعورية والفكرية والإدراكية والتعبيرية، ضرورات تسعى إلى الاندماج بالوعي والالتحام به وإقامة علاقات توافقية بين ما يمكن وما لا يمكن تحديده أو القبض عليه، وذلك من خلال المجاز أو الصورة التي تعتبر قابلا رؤيويًا ورمزيا قابلا لتشكيل المتخيل، دون أن نغفل في مقابل ذلك عن مستويات اللاوعي التي تساهم ولو بشكل ضمني في هذا التشكيل.

كما تعتبر الصورة أيضا وسيطا قيميا، فعالا وجوهريا داخل المخيلة، لجمعها بين الإدراك والذاكرة والخيال من جهة، ولتأرجحها بين ماهو ذاتي (تخيلي) ومرجعي (تخيلي) من جهة أخرى، بين ماهو مرئي (محسوس) وغائب (مجرد)، وبين ما تقتضيه اللغة ويفرضه التشكيل ضمن إطار الواقع والمتخيل مرورًا بطريقي: الامتداد والارتداد.

ومادام الخيال¹ مرتبطا بالوجود ارتباطا كليًا، بوصفه عالما ذهنيًا مجردا، فإنه لا بد له من أن ينفث على مدارات صورية شتى، تستمد وجودها الفعلي المحض من عالم واقعي محدد، وما من شك في أن هذا المعطى الواقعي الذي تتجرد به أفعال الخيال، إنما هو مجموع وحدات أو معطيات حسية مدركة تخضع بشكل أو بآخر لمبدأي: التفاعل والتبادل.

والخيال بحكم طبيعته التحويلية والتركيبية وباعتباره "ملكه نفسية وقوة باطنية، تعيد إنتاج المعطيات الإدراكية السابقة وتسهر على تشكيل تمثيلات ذهنية مشابهة لظواهر العالم الموضوعي، أو مغايرة لها في بياناتها وعلاقاتها وطرق اشتغالها"²، كما يسعى أيضا إلى

تفكيك هذه الوحدات أي المعطيات الإدراكية السابقة، وإعادة تركيبها تركيباً مغايراً يحتكم إلى جملة من التصورات والسياقات التي يبتدعها الفكر ويؤسسها وفقاً لقدرته على ذلك.

إن ارتباط عنصر الخيال بمعنى القدرة أي القدرة على تكوين صور ذهنية، لأشياء غابت عن متناول الحس من جهة، والقدرة على الانفلات من أسر هذه القوالب الصورية الغائبة/ الحاضرة من جهة أخرى، إنما هو ارتباط وثيق الصلة بمعنى التشكيل، الذي يعد بحق جوهر الفعل التخيلي والقائم بدوره على ثنائية الاستحضار والابتكار، وهي ثنائية تراتبية لا بد منها للوصول إلى جوهر الفعل التخيلي الخالص والخالق.

تستلزم هذه الثنائية في المقابل قوالب شكلية محددة تفرضها الطبيعة أولاً وأخيراً، لينطلق منها التشكيل فيما بعد، وهذا ما يستوجب معنى الاستحضار الذي يشغل وفق حيز ثابت وجاهز، بينما يتحقق معنى الابتكار كفعل تخيلي ثان متحرك من خلال مبدأ الخلقة والتفكيك وإعادة التركيب والتشكيل الذي تفرضه المخيلة³ بطريقة أو بأخرى.

فالمخيلة "خزين مريبك من الصور والأحداث لا يربطها منطق أو نظام إنها وحدات صغيرة مكومة بلا نظام، وأن عددها لا متناه لذلك فإن عملية التخييل لا تكون استعادة لشيء، بل هي افتراض بني أو أنظمة من هذه الوحدات، إن المخيلة تبتكر ولا تستعيد، تبتكر أنظمة جديدة موجودة في طبقات الأنظمة التابعة للذاكرة"⁴.

من هنا يتأسس فعل الابتكار والخلق، بعيداً عن معطيات الاستحضار والاستدكار، وإنما وفق ما تقتضيه السياقات المعرفية التي تشكل في مجملها مخزوناً متشعباً ولا محدوداً من الأشكال والصور والتمثيلات التي تتفكك تباعاً وتتداعى لتفسح المجال واسعاً أمام أفعال التخييل⁵ اللامحدودة.

"إن الطراز الفريد من التخييل هو فتح المخيلة إلى أقصاها والالتصاق بالجوهر الكوني وجعل هذه المخيلة تتلقف أعنف الاشتباكات، ولذلك فإن عليها أن تلعب دوراً جديداً، فهي إذ تقع وهي تنجز المادة الجمالية ضمن حدود الفن الجميل، المزوق المصنوع بمهارة التضاد مع الطبيعة، فهي تقع في محاكاة أخرى، محاكاة الأنماط الجمالية، ولذلك فإن الدور الصحيح الذي يجب أن تلعبه المخيلة، هو محاكاة الأنماط الجمالية من أجل عملية تطهير قصوى لأنقاض داخلية لا حدود لها"⁶، وذلك ضمن اعتبارية التصور القائم والممكن واللاممكن غيبة

وحضوراً، حركة وكمونا، تجلياً وضموراً على سبيل التخيل⁷ الخلاق الذي يمليه علينا نسق ما، وتقتضيه بالضرورة سياقات ظاهرة وأخرى باطنة تتألف فيما بينها وتتنافر وتتقابل تارة وتتجاوز.

والتخيل في ظل هذه المحاكاة والتصورات والأنساق والسياقات والتنافرات والتألفات، تأليف ما "تأليف صور ذهنية تحاكي ظواهر الطبيعة وإن لم تعبر عن شيء حقيقي موجود"⁸.

ومادام الخيال مرتبطاً بالصورة ارتباطاً كلياً، فإنه يستوجب من دون شك، البحث في العلائق الصورية التشكيلية، التي يسهم الخيال في تحريرها وتفعيل وجودها، وبالتالي تثبيت أفعال المغايرة والتجاوز، بغية التحرر من الصور المألوفة والوجود المتكرر للخيال، ذلك أن ديناميكية الصورة وقيمتها تقاس بمدى اتساع حيزها الحيوي التخيلي.

أما المتخيل باعتباره حامل الخيال ومقومه الأمثل والأوحد، فهو: "معطى مادي يدل على الخيال، ويقوم شاهداً عليه، ومن ثم يتقدم بوصفه جسراً للعبور إليه والاقتراب منه. وبعبارة أخرى إنه صورة الخيال وقد تحولت من مستواها الذهني المجرد والباطني، فتشكلت في قالب تمثيلي، ومظهر إيحائي ملموس، وهو أيضاً وأساساً نسق من العلاقات بين الصور وحركية منظمة لبنياتها ومركبة لعناصرها"⁹.

ويمكننا القول، إن هذا التشكيل المطعم بعناصر الخيال والمتعين بها، يفرضه نظام خاص ويؤسسه بدافع حركية ما (بوعي أو بغيره)، وهي حركية تمثيلية متخيلة قوامها المجرد والملموس، الظاهر والباطن، وهي إذ تفعل ذلك فإنها تفسح المجال واسعاً أمام تلك الإمدادات العلائقية المتألّفة والمؤلفة في آن، والمشدودة إلى عوالم التخيل والتشكيل بطريقة أو بأخرى.

إن الحديث عن المتخيل وعلاقته المثلى بالخيال، لا يختلف كثيراً عن حديثنا عن الميتافيزيقا وعلاقتها بالوجود الفيزيقي، وكيف أن أحدهما يؤدي ويدل على الآخر بطريقة ما دون أن يستلزم الأمر بالضرورة الكشف أو البحث في حدود كل منهما، أين يبدأ حد الوجود الحقيقي وينتهي حد الوجود العرضي والعكس صحيح؟ هذا إذا افترضنا جدلاً أن الخيال وجود حقيقي مجرد

والمتخيل وجود عرضي محسوس، مادام أن كلا منهما جوهر الآخر، ومادام أن وجود كل منهما يفضي إلى وجود الآخر بالضرورة..

"فالميتافيزياء ليست بحثا فيما هو خلف الفيزياء، ولا هي بحثا وراء الفيزياء، بل هي بحث فيما وراء الفيزياء، (فيما وراء) كجملة واحدة تعني المقوم أو الحامل، وهي هنا تعني البحث فيما يتقوم به أو فيما يحمل الوجود الفيزيائي على الظهور"¹⁰.

وكما يوجب البحث عن حقيقة الوجود، البحث في جوهره المطلق (الذي به يتحقق ويتموجد) فكذلك يوجب المتخيل كمعطى حسي ومباشر، البحث في موضوعه الخيال كمعنى مجرد وغير مباشر، بوصفهما معا الحامل والمحمول والقائم والمقوم على أن نضع في اعتبارنا دائما، أن "حوامل الوجود الفيزيائي ليست مضافة إلى هذا الوجود أو منفصلة عنه، بل هي الجزء الأساسي فيه، تماما كما أن الأعصاب والدماغ ليست مضافة إلى الجسد، بل جزءا أساسيا منه"¹¹.

وإذا كانت الميتافيزياء بهذا المعنى جزءا أساسيا من الفيزياء، فإن المتخيل جزءا لا يتجزأ من كيمياء الخيال، بل ولا يمكن إدراك الخيال من دونه، والسؤال المطروح في هذا المجال: هل للخيال من حوامل (مقومات) تحمله باستثناء المتخيل؟ أم هل يمكننا اعتبار المتخيل هو الحامل الأمثل والأوحد للخيال؟ على اعتبار أن المتخيل معطى ماديا وصورة للخيال وجسرا للعبور إليه؟ وهل ثمة جواهر ما ورائية غير محسوسة بها يتقوم ويقوم الخيال والمتخيل معا؟ وبعبارة أخرى: هل يستطيع المتخيل باعتباره الأنموذج الأمثل أن يكون دليلا كافيا على الخيال؟ وإذا كان الأمر كذلك هل بإمكان الخيال أن يتحقق تماما ويتجلى في مرآة المتخيل فعلا وكونا وحدوثا؟ هل ثمة حوامل تجعل المتخيل شاسعا وواسعا كالخيال؟

الإنسان البدائي وخیالات الأرواح / الأشباح:

تشغل موضوعه الخيال حيزا كبيرا في الفكر الأسطوري، بل يمكننا القول إنها علامة فارقة بين الحياة والموت، والوجود والعدم، فالخيال جزء لا يتجزأ من الروح التي سرعان ما تتحول إلى شبح إذا ما انتهك خيالها بفعل حادث ما، سواء أكان ذلك من خلال الطعن أو السقوط أو الوطء"¹².

ولذلك أيضا يندمج مفهوم الخيال عند الإنسان البدائي مع مفهوم الروح بشكل عام، بحيث تعتبر الأعطاب والتشوهات التي تمس الروح قابلة لأن تحدث اختلالات عميقة بالخيال. فالخيال بوابة الروح التي يطل منها الكائن على العالم الخارجي، والعالم الآخر، وطريقها الأيسر نحو صيرورتي: البقاء والفناء.

يرى جيمس فريزر أن الخيال عضو آخر يضاف إلى الأعضاء الحيوية الخاصة بالإنسان، والتي لا يمكن فصل بعضها عن بعض حسا وشعورا، ذلك أن الإنسان البدائي سرعان ما يتداعى خياله إذا ما تداعت روحه، مادام الخيال نسخة مشوهة عن الروح في حال اعتلالها.

والاعتقاد نفسه بالنسبة لانعكاس صورة الخيال في الماء أو المرأة¹³ ظنا منهم وخشية " من أن تسحب أرواح الماء انعكاس المرء أو روحه تحت الماء، تاركة إياه بلا روح حتى يموت، ولعل هذا هو أصل قصة نارسيديسوس الذي اعتل جسمه ومات لأنه رأى انعكاس صورته في الماء "¹⁴.

وما يبرّر خشيتهم تلك إزاء انعكاس الصورة بشكل عام وتدفعها على سطح ما؛ هو اعتقادهم المطلق أن روح المرء تطل من جسمه وتتموجد خارجه، الأمر الذي يدفعهم إلى التوجس خيفة من أن هناك خطرا دائما ومحدقا بهم، يمكن الروح من التحرر من عوالم الجسد، وعدم رجوعها إليه.

وتتموجد الروح خارج الجسد على هيئة ظل على سطح الأرض أو خيال منعكس على صفحة الماء، يسوغ لأي كان حرمان صاحب الظل من ظله أو خياله/ الروح ليفارق الحياة في غضون أربعين يوما، أو حتى سنة من الزمن؛ قبل أن يستحيل شبعا غاضبا، أو حجر أساس لبناء ما، أو طيفا¹⁵ ماردا كثيرا ما يتردد على المكان المقصود ويحرسه.

يتحدث جيمس فريزر عما أسماهم بتجار خيالات، هؤلاء الذين يزودون المهندسين بالخيالات الضرورية لتدعيم جدرانهم وتمتينها "و في هذه الحالات يعد حجم الخيال معادلا للخيال ذاته ويسد دفنه مسد دفن حياة الرجل أو روحه وهو الذي سيموت لا محالة بعد حرمانه من ظله وبذلك نرى أن هذه العادة تقوم مقام دفن رجل في الجدار أو سحقه تحت حجر الأساس

لإكساب البناء القوة والمتانة، أو بعبارة أدق: لجعل الشبح الغاضب يتردد على المكان ويحرسه من تدخل الأعداء" ¹⁶.

إن هذا التشارك الفعلي للروح في بناء الأساسات وجعلها تعويذة أو تميمة لدرء الشر عن المكان، ما هو إلا اعتقاد راسخ بقيمة الأخيلا ومدى فاعليتها لدى الإنسان البدائي، حيث تظل الروح ذلك المجهول الغامض الذي يحترس منه في الواقع، بينما تقوم بحراسة المكان بعد تحولها إلى شبح على مستوى المتخيل، لذلك وغالبا ما يستسلم مدعورا ومأخوذا بما يتردد في نفسه: "احذر من أن يأخذوا خيالك" ¹⁷، عند كل بناء جديد قيد التشييد.

يعد الخيال بهذا المعنى، الحامل والمحمول معا، وذلك من خلال أبعاده الرمزية التي يراد تشكيلها وقولبتها حسب المتطلبات والتصورات التي يقتضيها المقام، بدءا من تجار الخيالات إلى صناعة الأشباح التي تحمل مدلولات رمزية تخيلية، حيث يحل الشبح محل الخيال ويقوم مقام القرين المرابط بالمكان.

إن الاعتقاد الجازم بالأشباح والأطياف مترسخ منذ القدم "وقائم على فكرة أن روح الإنسان أو روح أي شيء، شكل في داخل شكل، مزود بإرادة وحركة خاصة به، أو خيال شخص ميت" ¹⁸. إنه استيهام حركي مادي، تحفزه تأهبات الخيال الجامحة، ووثباته الانفعالية التوتيرية العالية وغير المتوقعة، استجابة وتمثيلا لما يقدمه الإدراك على مستوى الخيال/الصورة.

والحقيقة أن هذه الأشباح ما هي إلا صورا ذهنية، مرئية وشبه مرئية لكائنات وهمية، لطالما تراءت له في أحلام نومه ويقظته وقد نقل وجودها الفعلي من العالم الذهني والمفترض (المتخيل) إلى العالم الواقعي، وإذ "تزداد الصلة بين الصورة الذهنية وهذه الكائنات الوهمية في ذهن البدائي، فيأخذ الأمر صورة اعتقاد فيما يسمى بالطيف أو الظل أو الذات الثانية كأن تقول: إنَّ للمرء من نفسه شقيقا أو قرينا كالطيف يُدخله، وقد نتج عنه الاعتقاد في الأطياف والأشباح وحياة الجماد والمخلوقات الخرافية، وما تمجيد الموتى، وعبادة الأسلاف فيما يقول "سبنسر" إلا نمو لذلك الإيمان الموهل في القدم" ¹⁹.

وقد توطدت هذه الصلة أكثر فأكثر مع الذات الثانية أو القرين إلى أن أصبح وجوده ومعناه يساوي وجود الإنسان وظله أو خياله الذي يخشى أن يفقده، وبالتالي أن يفقد نفسه، كما يعتقد قدماء المصريين.

إن هذه الاستدعاءات الرمزية للأشباح والأطياف والخيالات، يقابلها ضمناً استدعاء القرين في عوالم العرافة والسحر، بواسطة التعاويذ، وهي طقوس تخيلية استحضارية، يرتبط فيها القرين بشكل عام بظل الإنسان ووجوده الواقعي والمتخيل.

وقد تقاطع هذا الاعتقاد أيضاً مع اعتقاد العرب قبل الإسلام فيما يخص الهامة²⁰ والغيلان والجن والسَّعلاة، وإن كانت فكرة "الهامة" قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بفكرة الشبح والطيف، وبمعاني الموت والقتل والترهيب والترويع والفقد.

وهذا ما يدل على أن الإنسان البدائي "لم يصل بعد إلى مرحلة الوعي بالذات فهو لم يجد نفسه، صاحب هوية مستقلة أو شخصية فردية، تتمايز عن الوسط الذي يعيش فيه سواء أكان هذا الوسط وسطاً طبيعياً أو اجتماعياً أو أسطورياً، بل على العكس؛ إنه ليندمج ويتوحد ليس فقط مع الآخرين من أبناء قبيلة بل وأيضاً مع الحيوانات والنباتات.... إلخ بشكل يكاد يكون كاملاً. ويعتبر هذا التوحد أو التعيين بمثابة مبدأ أساسي في تفكير البدائيين عامة، وهو التفكير الذي لا يخضع للمعايير العقلية على نحو ما يفهمها الإنسان الحديث. وتماشياً مع هذا المبدأ، لا يفرق الإنسان البدائي بين الجسم أو الروح، أو النفس ولا بين الأصل والصورة، فهما عنده واحد ونفس الشيء"²¹ كما أنه لا يفرق أيضاً بين الحقيقة والخيال لاعتقاده أن ما هو موجود بالقوة هو موجود ومتحقق بالفعل، ونقصه بالقوة هنا: القوة القائمة على الخيال كقوة باطنية والتخيل باعتباره القوة التي تتصرف في الصور الذهنية، والمخيلة باعتبارها القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة..

وبما أن الإنسان محكوم بالخيال (طبعاً وغريزة) ومدفوعاً إليه دفعا واضطراباً، خاصة بالنسبة للإنسان البدائي، فإن ذلك يجعله من دون شك واحداً من أهم الموجودات المتعينة، والتي يُنظر إليها بعين الحقيقة وجوداً لا بعين الخيال المتعالي على الوجود والتحقق، خاصة بعد عجزه الأولي عن التفريق بين الحقيقة والخيال والتمييز بينهما.

ورغم أن نظرتة إلى الحياة قد تغيرت، وتطورت وتعالَتْ عن طريق العقل، إلا أنه "لم يزل بحاجة إلى الخيال لأنه وإن أصبح يحتكم إلى العقل، ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه، فهو

لم يزل يحتكم إلى الشعور، وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، واحتكامه إلى الشعور يدفعه ولا بدّ إلى استعمال الخيال²².

وإذا كان نشاط الإنسان البدائي التخيلي، يحتكم إلى ثنائية العقل والشعور، فإنه من دون شك يتكئ على علائق التجسيد والتجريد والتشخيص والتطبيع والتمثيل والتعليل، ويقيم على أساس كل ذلك عوامله الخاصة التي بها يتبلور وجوده الحقيقي الكامل في الوجود الواقعي.

فالخيال إذن هو الذي يؤسس الواقع كما أن الواقع هو ذلك المتحقق عن طريق الخيال بكامل إسقاطاته وتمثلاته ووسائطه المعنوية وغير المعنوية، ما دامت كل الطرق الواقعية وغير الواقعية تؤدي إلى الخيال ولا تتحقق إلا به.

وعلى كلّ: "فإن الخيال يقدم نتاجه إلى عين العقل التي تتلقاه مفترضة أنه واقع، حتى لو كانت تعلم أنه غير ذلك، ولا تتوسل القدرة التخيلية بالموجودات من حيث كونها أشياء ذات مظاهر وأشكال مادية ملموسة، بل تتوسل أيضا بالأفكار والمشاعر التي تخلع عليها المعنى وتجعلها رغم تجريدها قابلة للفهم والاستيعاب والتعاطف".²³

لذلك كانت الأسطورة هي الأقرب إلى نفسه، لتفسير الوجود وفهمه والتعبير عنه، والأدنى إلى شعوره وخياله ومشاعره لاستمالة الوجود لصالحه والكشف عن معانيه ومتناقضاته

ولو بطريق المجاز²⁴: إنها " الصوت الأول الذي رن بين جنبه من أصوات الفكر وأجراس الشعور، أو بعبارة أدنى إلى الذهن، إنما طفولة الشعر في طفولة الإنسان وما كان مصدره الطفولة الساذجة فهو أدنى إلى الطبع وأدل على النفس من أي شيء آخر، لأنه يبقى بريئا من كل كلفة أو تصنع، بعيدا عن كل زخرف أو تمويه"²⁵.

ولطالما اعتبرت الأسطورة ملاذ الإنسان البدائي وحافظة وجوده وكيانه، يتعرف من خلالها وبها على مشاهد الوجود ومظاهره المتعددة، فيعبرها من نفسه مجالا حيوا يقيها على قيد الحياة رمزا ومجازا وإحياء، نافخا فيها من روح الحياة وإكسيريها الأبدي وصاقلا إياها بماء الخيال الذي لا ينضب، فإذا هي حية تسعى على مدى الزمن.

مع العلم أن مجال هذا الخيال هو (ما فوق الطبيعي)، وأن ما يقوم به الخيال البدائي من نشاط حيوي، إنما هو محدد ومقوّل وجاهز، إضافة إلى أنه بالغ الفعالية والمنفعة بالنسبة إلى الإنسان البدائي الذي ينظر إليه نظرة براغماتية محدودة ومقيدة.

"إن الخيال البدائي يتعامل أساساً مع ما فوق الطبيعي وغير المحسوس، فضلاً عن أنه غالباً ما يندفع إلى الحركة والفعل بطريقة لاواعية، ليحقق الأهداف التي تفرضها عليه موضوعاته الخاصة، وهو يقدم إلى العقل المتلقي شيئاً مرئياً، وذلك من خلال خلعه صفات المنظور والمألوف على غير المألوف أو المنظور، وتنبع قدرته على تحقيق ذلك من حدة ورهافة الإحساسات البدائية، فعلى هذه الإحساسات يعتمد نشاطه وواقعيته أيضاً"²⁶.

وهو إذ يجنح إلى الخيال (ما فوق الطبيعي) لا يركز اهتمامه على ما هو غائب عن حسه وعن حدود المكان والزمان بقدر ما يهتم بما تتمثله ذاته وتعتقد بوجوده الفعلي والمطلق، بعيداً عن انشغالات الحواس وتمثيلات الشيء المنظور والمحسوس.

وهذا ما يجعل معتقداته البدائية عصبية على التبدّي والوضوح والدقة، وقد تأخذ طابعاً غرائبياً غير مألوف، يتطلب الكثير من إعمال الفكر والخيال، للوصول إلى لب (ما يعتقده) حقيقة، والقبض على معناه، حسبه في ذلك أن يكون ملموساً ومفهوماً وفعالاً وقريباً من الذهن ومن المتلقي.

"والذي دفع المبدع البدائي إلى ممارسة العملية التخيلية على هذا النحو، إنما هو في الغالب محاولة فهم ما تعنيه المعتقدات والأساطير التي يعايشها، إنه ينظر إلى هذه الأساطير والمعتقدات ويحاول تفسيرها من خلال نظراته الخاصة إلى العالم، والنتيجة الطبيعية لهذه النظرة، أن كل الموجودات اللامرئية أو اللامحسوسة التي يؤمن بوجودها، تصبح موجودات واقعية، تلج دائرة فنه الواقعي، وتدخل في إطار عالمه المألوف"²⁷.

والغريب في الأمر أنه يمارس نشاطه التألّفي المشهود بين عناصر الوجود، دون أن يتدخل عنصر الوعي في ممارسته تلك، وينتج عن ذلك، أن تصبح الموجودات والمعتقدات التي تلازمه طيلة هذا النشاط، كما لو أنها واحدة من المسلمات التي يتعين على الفرد الوثوق والإيمان بها

وتقبلها دونما أي اعتراض، على اعتبار أنها مألوفة وواضحة، لا فرق بينها وبين باقي الموجودات اللامحدودة واللاهائية، التي لطالما شعر بها وتآلف معها وأمن بشموليتها وإحاطتها به، واندماجها بعالمه.

وختلاصة القول:

إنَّ القدرة على دمج المعقولات والمحسوسات وتجميع الصور والموجودات وتشكيلها (على هيئة خيالات أو كائنات مرئية وغير مرئية) ومن ثَمَّ تركيبها وتفكيكها وتدويرها وتجسيدها وتآليها وأنسنتها، والتأليف بينها، تتطلب وتستلزم خيالاً قوياً ودقيقاً جداً، ومرناً في التعامل معها، على افتراض انتمائها إلى العالم الطبيعي وعالم ما فوق الطبيعي.

وإن كان الإنسان البدائي يؤمن في حقيقة الأمر بتوحيدهما معا وانبثاقهما من بوتقة واحدة، بل وبتطابقهما أحياناً، دون أن ينكر وجود الأول من الثاني، وعلاقة كل منهما بالآخر (تأثيراً وتأثراً) ما يدل على أن خيال الإنسان البدائي قائم على استخدام مدركاته الحسية الملموسة وتطويعها، ليخلق بها عوالم غيبية مجردة انطلاقاً من معرفته الأولى والخاصة التي لطالما كونها عن العالم الفيزيقي الذي يواجهه باستمرار، ويقاومه بكثير من التحدي والمعقولة المتخيّلة.

الهوامش والمراجع:

¹- ويدل الخيال أيضاً على الصورة الباقية في النفس، بعد غيبة المحسوس عنها، فإما أن تكون هذه الصورة تمثيلاً مادياً لشيء خارجي مدرك بحاسة البصر، كارتسام خيال الشيء في المرأة أو تمثيلاً بخطوط بيانية، وإما أن يكون تمثيلاً ذهنياً، لشيء مدرك بحاسة البصر، أو غيرها من الحواس، ومن عادة علماء النفس، أن يجعلوا هذا التمثيل الحسي مضاداً للتمثيل العقلي، إلا أن الفلاسفة الحسيين لا يرون ذلك بل يذهبون إلى أن التمثيل العقلي متولد من التمثيل الحسي، ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، د ط، ص 546.

²- يوسف الإدريسي، الخيال والتمثيل في الفلسفة والنقد الحديثين، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2005، ط1، ص 07.

³- المخيلة أو المتخيلة هي القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة منها، وتصرفها فيها بالتركيب تارة والتفصيل تارة أخرى، مثل إنسان ذي رأسين أو عديم الرأس، وهذه القوة إذا استعملها العقل سميت مفكرة، كما أنها إذا استعملها الوهم والمحسوسات مطلقاً سميت متخيلة ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، د ط، ص 325.

⁴- خزعل الماجدي، العقل الشعري، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2011، ط 1، ص: 33.

⁵ - تدل كلمة تخييل والتي تتقاطع بدورها مع كلمة خيال، على أفعال الصنع والتشكيل والخلق والابتكار لأشياء متخيلة، وقد استعملت في القرن 13 للدلالة على مجال المتخيل و اللاواقعي، كما استعملت في القرن 17 بمعنى الخداع بينما دلت في القرن 18 على ما يخلفه الخيال، وخاصة في الحقلين الأدبي والفني، وتستعمل حالياً في تركيبات كثيرة، تعين الجنس الأدبي أو السينمائي القائم على الخيال الاستقبالي كما هو الأمر بالنسبة إلى الخيال العلمي، والخيال السياسي ونحو ذلك، ينظر: يوسف الإدريسي، الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ص: 29.

⁶ - خزعل الماجدي، العقل الشعري، ص: 34.

⁷ - تخيل الشيء: اخترعه وأبدعه كما في التخيل المبدع، وهو قوة تتصرف في الصور الذهنية بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص، وتسمى هذه القوة بالمخيلة أو المتخيلة، قال الفارابي: " القوة المتخيلة حاكمة على المحسوسات ومتحكممة عليها، وذلك أن تفرد بعضها عن بعض وتركب بعضها إلى بعض تركيبات مختلفة يتفق في بعضها أن تكون موافقة للحس، وفي بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس، والمثال من هذا التخيل المبدع تخيل المصور الذي يرسم صورة خيالية يراها في أعماق نفسه، أو تخيل الكاتب الذي يصف حياة بطل يتمثلها كما يشاء، أو تخيل العالم الذي يبدع نظرية جديدة، ويسمى هذا النمط من التخيل اختراعا أو ابتكاراً وتجديداً، ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، ص: 262.

⁸ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، ص: 262.

⁹ - يوسف الإدريسي، الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ص: 08.

¹⁰ - هاني يحي نصري، الميثافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1998، ط 1، ص: 27.

¹¹ - المرجع نفسه، ص: 39.

¹² - يورد جيمس فريزر في كتابه: الغصن الذهبي بعض التصورات الخاصة بهذا الانتهاك بقوله أن ثمة سحرة قادرون على إصابة شخص بالمرض من خلال طعن خياله برمح أو ضربة بالسيف، إضافة إلى اعتقاد بعضهم بما يسمى بالأشباح الآكلة وهي حجارة ذات أشكال طويلة جداً، تسكن فيها أشباح خطيرة وقوية، فإذا ما سقط خيال امرئ على إحدى هذه الحجارة انتزع الشبح روحه من خياله فيفارق الحياة، كما يعتقد الناس أيضاً في الجزيرة العربية أنه إذا وطأ ضبع خيال رجل سلبه القدرة على الجري والحركة وأنه إذا كان على السقف كلب واقف في ضوء القمر وخياله ممتد على الأرض ووطأ خياله ضبع سقط الكلب على الأرض كما لو أنه جُرَّ بحبل. ينظر: جيمس جورج فريزر، الغض الذهبي، ترجمة: محمد زياد كبة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2011، ط 1، ص: 118، 120.

¹³ - يتبلور مفهوم انعكاس صورة الخيال لدى جيمس فريزر من خلال حديثه عن أبناء قبيلة الزولو الذين يمتنعون عن النظر في حوض داكن لاعتقادهم أن فيه وحشاً ينتزع انعكاس صورهم ويؤدي إلى موتهم أما بالنسبة لأبناء الباسوتو فإنهم يعتقدون أن للتماسيح القدرة على قتل إنسان من خلال جر انعكاسه تحت الماء، فإذا مات أحدهم فجأة وبدون سبب واضح ادعى أقربائه أن التماسيح أخذت خياله وهو يعبر النهر ذات مرة، وفي جزيرة سادل في ماليزيا هناك بركة يموت كل من ينظر في مائها لأن روحاً شريرة تمسك بروحه من خلال انعكاس صورته في الماء، أما بخصوص الحديث عن عادة تغطية المرايا وتوجيهها نحو الحائط إثر وفاة

أحد أفراد الأسرة، فمرد ذلك خشية الناس من أن يأخذ شبح الميّت الروح التي تنطلق من الشخص في هيئة انعكاس لصورته في المرأة لاعتقادهم أن شبح الميّت يبقى في البيت حتى الانتهاء من الدفن، ينظر، المرجع نفسه، ص: 123، 125.

¹⁴ - المرجع نفسه، الصفحة 125.

¹⁵ - لقد كان الطيف أو الخيال صورة مرئية أو شبه مرئية، لما يدور في خيال البدائي، وإذا كان هذا الخيال عملية عقلية، فهو قد أخذ شكلا ماديا يتراءى شبحا أو طيفا أو حتى خيالا، ينظر: حسن البنا عز الدين، الطيف و الخيال في الشعر العربي القديم، دار المناهل، بيروت، 1994، ط3، ص: 23.

¹⁶ - جيمس جورج فريزر، الغض الذهبي، ترجمة: محمد زياد كبة، ص: 123

¹⁷ - من العادات المتبعة في اليونان الحديثة عند حفر أساسات بناء جديد " ذبح ديك أو كبش أو حمل وإراقة دمه على حجر الأساس، التي يدفن الحيوان تحتها بعد ذلك، أما الهدف من هذه الأضحية فهي إعطاء البناء القوة والثبات، لكن قد يحدث أحيانا أن يأتي البئاء برجل إلى الحجر الأساس فيقيس جسمه أو أجزاء من جسمه أو خياله سرا بدلا من نحر الحيوان، ثم يدفن المقياس تحت الحجر الأساس أو يضعه فوق خيال الرجل، ويعتقد أن الرجل يفارق الحياة في غضون سنة من الزمن، ويعتقد الرومانيون في ترانسيلفانيا أن كل من دفن ظله بهذه الطريقة مات في غضون أربعين يوما، لذلك قد يسمع من يمر بالقرب من بناء قيد التشييد، صوته يحذره قائلا: احذر من أن يأخذوا خيالك"، ينظر: جيمس جورج فريزر، الغصن الذهبي، ص: 123.

¹⁸ - حسن البنا عز الدين، الطيف والخيال في الشعر العربي القديم، ص: 25

¹⁹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

²⁰ - ويزعم بعضهم أن النفس طائر يتبسط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصورا في صورة طائر، يصرخ على قبره مستوحشا له وفي ذلك يقول بعضهم: سلط الموت والمنون عليهم = فلهم في صدى المقابر هام، وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرا أو يكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²¹ - محمود رجب فلسفة المرأة، دار المعارف، القاهرة، 1994، ط1، ص: 193.

²² - أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ط1، ص: 30.

²³ - موريس بورا، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال، الأسلوب الحداثي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ط2، ص: 09.

²⁴ - لم يكن بوسع الإنسان الأول في استعماله لكلمة الخيال في جملة وتراكيبه، أن يفهم المعاني الثانوية التي نفهمها منه نحن، ونسميها المجاز، ولكنه كان يستعمله وهو على ثقة تامة لا يخالفها الرب في أنه قد قال كلاما ما حقيقيا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو حينما يقول مثلا: ماتت الريح أو أقبل الليل، لم يكن يعني منه معنى مجازيا وإنما كان يعتقد أن الريح قد ماتت حقا وأن الليل قد أقبل حقا بألف قدم وألف جناح، يدل لذلك ما في أساطير الأقدمين من أنهم كانوا يؤمنون بأن الريح والليل إلهان من الآلهة الأقوياء، ينظر أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، ص: 24.

²⁵ - المرجع نفسه، ص: 34.

²⁶ - موريس بورا، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال الأسلوب الحداثي، ص: 66.

²⁷ - المرجع نفسه، ص: 11.